

[فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ] ٢٤ [أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا] ٢٥ [ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا] ٢٦ [فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا] ٢٧ [وَعِنَبًا وَقَضْبًا] ٢٨ [وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا] ٢٩ [وَحَدَائِقَ غُلْبًا] ٣٠ [وَفِكَهَةً وَأَبًّا] ٣١ [مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَكُمُ] ٣٢ [فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ] ٣٣ [يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ] ٣٤ [وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ] ٣٥ [وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ] ٣٦ [لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ] ٣٧ [وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ] ٣٨ [صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ] ٣٩ [وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ] ٤٠ [تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ] ٤١ [أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ] ٤٢]

[فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ] ٢٤]: هذه دعوة من الله ﷻ للإنسان، والمراد به هاهنا جنس الإنسان؛ لأن هذا لا يختص بالكافر، وإن كان الخطاب يتوجه بالدرجة الأولى إلى الكافر، المنكر للبعث، لكنه في الواقع يتناول المؤمن ليتعظ، ويتدبر. والإنسان بطبعه يتبدل حسه بالنسبة للأمور المألوفة، فلا يلقي لها بالاً، ولا يعتبر دوماً، ولا يتبصر بما يتكرر عليه ليل نهار، صباح مساء. فالله تعالى يصرف فكر الإنسان إلى أقرب الأشياء إليه، وهو هذا الطعام الذي يتناوله يومياً، ولم تحدثه نفسه أن يفكر في مصدره، وكيف سيق إليه؟

[أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا] ٢٥]: وهذه القراءة هي المشهورة بفتح الهمزة [أَنَا]، وعلى هذا تكون الجملة بدل اشتغال لقوله [فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ] ٢٤] والمراد بصب الماء كون الله ﷻ أنزل المطر على الأرض غزيراً قوياً، متتابعاً .

[ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا] ٢٦]: و (ثم) هاهنا تفيد التراخي؛ لأن الإنبات لا يحصل مباشرة، بل يقع في جوف الأرض من التكونات العضوية لهذه النباتات ما يستغرق فترة طالت، أو قصرت. ومعنى [شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا] أن الله سبحانه وتعالى فتق وجه الأرض، فأخرج هذا النبات. فتجد النبتة تشق الصعيد، أو تبحث من بين الصخور الصلبة عن شق تخرج منه، حتى إذا قويت واشتد عودها ففلقت الصخر، بقدرة الله ﷻ.

[فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا] ٢٧]: أي في هذه الأرض، والحب: اسم جنس لجميع الحبوب، فيشمل البر، والشعير، والذرة، والدخن، وغير ذلك من أنواع الحبوب .

[وَعِنَبًا وَقَضْبًا] ٢٨]: العنب معروف عند من نزل فيهم القرآن، فإن الحب قوتهم، والعنب فاكهتهم .

وأما (القضب) فالتفسير العام لهذه اللفظة أنه كل ما يقضب من النبات، فيجز، فينبت مرة أخرى. ومعنى أنه يقضب من القضب وهو القبض، وجذرهما واحد. وقد اختلفت عبارات المفسرين في معنى القضب، فقيل في معناه: أنها الرطبة يعني أي نبت رطب، وقيل في معناه: العلف، وتحديدًا القت، ويلحق به على هذا جميع أنواع البقوليات التي تنبت على وجه الأرض .

[**وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا** (٢٩)]: الزيتون معروف، وقد ذكره الله في غير ما موضع في كتابه، وهو شجرة كريمة، ويخرج منه زيت مبارك [**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَالِكِينَ** (٣٠)] {المؤمنون: ٢٠} ، والنخل كذلك معروف، وهو الشجرة الرئيسية، والثمرة الأساسية التي يتفكهون بها و يقتاتون منها، ولا ريب أنها من أكرم أنواع الأشجار، بل هي أكرمها، وأعظمها فائدة، ولهذا شبه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة، وألغز أصحابه يوماً، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ **يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ "أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ مِثْلَهَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ". فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَذْكُرُونَ شَجَرًا مِنْ شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَالْقَيْ فِي نَفْسِي أَوْ رُوِعَى أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَجَعَلْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهَا فَإِذَا أَسْنَانُ الْقَوْمِ فَأَهَابُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَلَمَّا سَكَتُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "هِيَ النَّخْلَةُ" فَحَدَّثْتُ بِهِ عُمَرَ فَقَالَ لَوْ كُنْتُ قُلْتُهَا لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا** (رواه البخاري ومسلم^(١)).

والمقصود أن النخل من أكرم الأشجار، وأعظمها بركة. وقد ذكره الله ﷻ، في مواضع كثيرة من كتابه .

[**وَحَدَائِقَ غُلْبًا** (٣١)]: الحدائق البساتين ؛ لأنها تحدد بمن كان بداخلها لكثافتها، والتفاف أشجارها. ومعنى [**غُلْبًا**] أي غلاظاً، وقيل عظيمة، وقيل كراماً، والحق أنه يشمل ذلك كله؛ بمعنى أن هذه الحدائق تحتوي على أشجار ضخمة، عظام، كرام، ولهذا فسرت بأنها النخل الكرام، فمعنى (الغلب) ما يدل على العظمة، والمتانة، والقوة، ونحو ذلك.

[**وَفَنَكِهِةً وَأَبًا** (٣٢)]: (الفاكهة) ما يتفكه به الإنسان من أنواع الثمار، و (الأب) قيل: إنه النبات عموماً، وقيل إنه ما يختص بطعام الحيوان. وكأن هذه اللفظة (أب) مأخوذة من (آب)، فالنبات الذي يحصد،

(١) صحيح البخاري(٦١٢٢)، صحيح مسلم (٢٨١١) واللفظ له.

ثم يخرج يقال له (أب) من الأوب، وهو العود. فيشمل الأعلاف، وما شابهها. فكأنه أراد التقسيم :
 (الفاكهة) للإنسان ، و (الأب) للحيوان. وأما ما يروى عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، أنه قال لما سئل عن
 (الأب): (أي سماء تظلني وأي أرض تقلني أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم) ^(١)، فهو من حيث
 السند منقطع، ومن حيث المعنى صحيح؛ فإن الإنسان لا يحل له أن يقول في كتاب الله بمجرد الرأي،
 بل لا بد أن يصدر في ذلك عن أثارة من علم؛ لأن القول على الله عظيم، وقد كان الصحابة، رضوان
 الله عليهم، يُسألون عن الحديث فيحدثون، فإذا سئلوا عن تفسير القرآن أمسكوا، تعظيماً للمقام؛ لأنهم
 يرون أن هذا قول على الله تعالى، وتوقيع عن رب العالمين، فكانوا يتحرجون غاية الحرج، أن يقولوا في
 كتاب الله ما لا يعلمون. فالواجب على الإنسان ألا يخوض فيما لا يعلم .

ويروى عن أنس أن عمر قال على المنبر: **[وَفَكَهَةٌ وَأَبًا]** ثم قال : هذا الفاكهة قد عرفناها فما الاب ؟ ثم
 رجع إلى نفسه فقال: إن هذا هو التكلف يا عمر! ^(٢).

وقد يكون هذا مشكلاً، فقد يفهم بعض الناس من هذا الأثر، وهو صحيح، أن الإنسان لا يسأل عما
 خفي عليه، لكن لا يظهر أن هذا هو مراد عمر، رضي الله عنه، وإنما كره أن يقول فيه بلا بينة، فعد ذلك تكلفاً،
 أن يستنبط شيئاً بلا جزم ولا يقين. وربما كان هذا اللفظ (الأب) ليس من لغة قريش، فخفي على
 عمر، رضي الله عنه؛ فإن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فبعض ألفاظه ومفرداته، قد لا تكون من لغة قريش،
 وإنما من لغة بعض أحياء العرب، فخفي على عمر، فنهى نفسه أن يتعجل قولاً بلا جزم ولا بينة،
 فقال: إن هذا هو التكلف. ولكن هذا لا يعني أن لا يسأل الإنسان عن معاني ما أنزل الله تعالى على

نبيه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما ترك شاذة، ولا فاذة، إلا بينها، كما قال تعالى: **[وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ**

لَهُمْ] {النحل: ٦٤}، وقال: **[أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ]** {محمد: ٢٤}، وقال: **[كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَذَّبَرُوا**

ءَايَاتِهِ] {ص: ٢٩}، وقال: **[إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ]** {الزخرف: ٣}، وقال: **[إِنَّا**

أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ]  {يوسف: ٢}، فلا بد من تعقل القرآن جميعه، ومعرفة مفرداته،

^(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٧٩/٧)، الدر المنثور (٢٥١/١٥) طبعة مركز هجر بمصر. قال ابن حجر في الفتح (٢٧١/١٣) هذا منقطع بين النخعي والصديق.

^(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٨٠/٧)، المستدرک للحاكم (٥٥٩/٢) وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي بشعب الإيمان (٢٢٨١).

وتراكيبه، ولكن هذا لا يكون بمجرد الرأي المحض، لابد من تفسيره بالمأثور، وقد بين ابن عباس، رضي الله عنهما أن تفسير القرآن على أربعة أضرب:

الوجه الأول: تعرفه العرب من لغتها: مثل معرفة (غَاسِقِي)، و (وَقَبَ)، و (الرَّقِيمِ)، و (الأب) ونحو ذلك، فهذا يطلب من علوم العربية، وقد كانوا ينشدون الأشعار، ويحفظون الشواهد، التي يفسر بها القرآن، وقد جرى بين ابن عباس، رضي الله عنهما، ونافع بن الأزرق سجال في هذا، وكان ابن عباس يستدل على معنى كل لفظة، بيت من شعر العرب .

الوجه الثاني: ما لا يعذر أحد بجهالته: وهو المعلوم من الدين بالضرورة. فإذا قال الله تعالى: **[أَقِيمُوا**

الصَّلَاةَ] {الأنعام: ٧٢}، فليس لقائل أن يقول: المقصود بالصلاة هنا الدعاء. لأن الشرع أتى بمعنى اصطلاحى للصلاة، وأنها عبادة ذات أقوال، وأفعال، مفتوحة بالتكبير، محتمة بالتسليم. هكذا.

الوجه الثالث: ما يعلمه العلماء: وهو الذي يحتاج إلى طلب، ورواية، ودراية؛ كعرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والخاص والعام.

الوجه الرابع: ما لا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علمه فهو كاذب: والمقصود به الكيفيات، وحقائق

المغيبات، فهذا لا يمكن أن يعلمه إلا الله. فإذا أخبر سبحانه وتعالى أنه **[عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ۝٥]** فإننا نثبت الاستواء، ونثبت معناه؛ أنه العلو، لكننا لا ندرك كيفيته، فكيفيته لا يعلمها إلا الله. الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وإذا أخبر الله تعالى، عما يقع في اليوم الآخر؛ من النفخ في الصور، والبعث، والنشور، والحشر، والصراط، والميزان، فإننا نعلم هذه المعاني من حيث اللغة، لكن لا ندرك الكيفيات، فهذا مما استأثر به الله تعالى بعلمه، أي بعلم كيفيته .

[مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٢] : **[مَنْعًا]** أي منفعة مؤقتة؛ لأن المتاع يدل على النفع، ويدل على الاستمتاع.

والاستمتاع لابد أن يكون موقوتاً. فهذه المذكورات فيها منفعة لكم، وفيها منفعة لأنعامكم. ثم لاحظ أن هذه الأنعام تحيل ذلك إلى طعام؛ فيؤخذ منها اللبن، ويؤخذ منها الزبد، والسمن، واللحم. إذاً هي

أيضاً تعود إلى الطعام، فتدخل في عموم قوله **[فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝٢٤]** .

فهذه الجولة في هذه المكونات الغذائية، التي ينبتها الله تعالى على وجه الأرض، ويتناولها الناس، تجعل الإنسان في موقف المتدبر لطعامه، من حين أنزل الله المطر من السماء، إلى أن وصلت إلى فيه. هذه المراحل تستدعي منه النظر، والاعتبار، والتفكير.

[فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ۖ (٣٢) [الصَّلَاةُ] اسم من أسماء الساعة. وسميت بذلك لأنها تصخ الأذان لشدة صوتها، فهي صيحة مرعبة، مدوية.

[يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)]: هذا وصف لتفاصيل القيامة، وهو مشهد مرعب، مفرع، يهرب المرء من أقرب الناس إليه، ممن يتمنى أن يفديهم في دنياه، وأن يدفع عنهم الأذى، ويتمنى أن يصيبه دونهم، فيوم القيامة، يفر منهم، وينفض يديه منهم، لا أحد ينعطف على أحد، ولا أحد يلتفت إلى أحد. حتى أخيه الذي درج معه في مراتع الصبا، لا يباله يوم القيامة، ولا يلتفت إليه .

[وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥)]: سببا وجوده في هذه الحياة، أحن الناس عليه، وأشفقهم به، يفر منهم. يسألانه حسنة واحدة، فلا يبذلها لهما، يقول نفسي! نفسي! النجاء! النجاء!

[وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦)]: الصحابة: هي الزوجة، ألقى الناس به، والتي جعل الله بينه وبينها، في هذه الدنيا مودة، ورحمة وسكنا، يوم القيامة، يفر منها، وإبنة فلذة كبده، وبضعة منه، يفر منه يوم القيامة . لا ريب أن هذا يدل على هول المطلع، وعظم الموقف، وأن الإنسان ما كان لييدر منه هذا التنصل من أقرب الناس إليه، إلا لشدة الحال. ولو تأملت في حياتك الدنيا، لوجدت أنك لو رأيت بعض هؤلاء الأحبة يغرق لألقى نفسك عليه، لتستنقذه، وربما تهلك معه، وإذا وجدته يحترق، ربما ألقى نفسك عليه، وإذا فقدته لحقك حزن عظيم، وهم، واكتئاب. لكن تأمل! يوم القيامة، لا مكان لهذه المشاعر، لأن المرء يدرك أن أمامه مصير مستديم، وهول عظيم، يريد أن ينجو بنفسه، يريد أن ينقذ ذاته، لا يلوي على أحد .

[لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ (٣٧)]: يعني يغنيه عن النظر إلى غيره

ونحن إذا متنا أشد تغانيا

كلانا غني عن أخيه حياته

[**وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩**]: في ذلك الموقف العصيب يتمايز الناس؛ فمن خافه في الدنيا، آمنه في الآخرة، ومن آمنه في الدنيا، أخافه في الآخرة. وإنما عبر الله تعالى عن الذوات بالوجوه، لأن الوجه هو مرآة الإنسان، بل هو مرآة القلب فتظهر انفعالات القلب على الوجه، فالوجه صفحة ظاهرة، تنبيء خبيثة باطنة. ومعنى **[مُسْفِرَةٌ]** مضيئة مستنيرة، ووصف الوجوه بأنها **[ضَاحِكَةٌ]** لأن الضحك يرى في الوجه، والضحك يكون من فرح، ومن أنس، ومن موعود حسن، ومعنى **[مُسْتَبْشِرَةٌ]**: أي فرحة، متفائلة، لما تنتظر ما عند الله **وَعَلَىٰ مِنَ النِّعَمِ**، والفضل. جعلنا الله وإياكم منهم .
[**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠**]: كالحلّة مظلمة .

[**تَرَهَقَهَا قَرَةٌ ۝٤١**]: أي سواد، وظلمة، كما قال الله في الآية الأخرى: **[يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۝٤٢]** {ال عمران: ١٠٦} .

[**أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ۝٤٣**]: جمعوا بين فسادين؛ بين فساد القلب، وفساد العمل، فساد القلب دل عليه وصفها بالكفر، وفساد العمل دل عليه وصفها بالفجور.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: فضيلة التفكير في نعم الله وآلائه، والدعوة إلى ذلك.

الفائدة الثانية: بديع صنع الله في النفس، والآفاق.

الفائدة الثالثة: كرم هذه الثمرات المذكورات، والنباتات، لأن الله تعالى ما خصها بالذكر إلا لمزيد مزيته.

الفائدة الرابعة: وجوب شكر المنعم وعبادته؛ لأنه قال **[مَنَّاعًا لَّكُمُ وَلَا تَعْمِكُمْ]** .

الفائدة الخامسة: عظم أمر الساعة، وهول أحوال يوم القيامة.

الفائدة السادسة: تبرؤ الإنسان من أقرب الناس إليه يوم القيامة.

الفائدة السابعة: أن الجزاء من جنس العمل.

الفائدة الثامنة: أن الكفر كفران؛ كفر اعتقادي، وكفر عملي **[أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ۝٤٣]**، لأن الموصوف.